دور معاهد تحفيظ القرآن

في التزكية والتربية الإيمانية

ضحى مصطفى فتاحي

الألوكة
www.alukah.net

دور معاهد تحفيظ القرآن في التزكية والتربية الإيمانية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد:

انتشرت معاهد تعليم القرآن في العقود الأخيرة انتشاراً ملحوظاً في معظم الدول العربية، صاحبها صحوة دينية مقبولة تقف أمام دعوات التحلل من الدين وتمييعه، أو الدعوات الإلحادية المتكاثرة. ويأمل المسلم ويدعو الله تعالى أن تؤتي هذه الجهود ثمارها في إحياء هذه الأمة، وأن تؤدي دورها المفترض في تخريج جيل من حملة القرآن الكريم ومن المدافعين عن دين الله وسنة رسوله الكريم.

والمراقب لعمل هذه المعاهد – سواء كانت للذكور أم الإناث- يجد بعضها، وخاصة في الآونة الأخيرة تركز على حفظ القرآن الكريم فقط. بمعنى أن الإنسان الذي يدخلها سواء كان طفلاً أو شاباً أو شيخاً يُخصص له وقت محدد ليعرض ما حفظه على شيخه، دون أن يُعنى هذا الشيخ بتزكيةٍ أو وعظٍ أو تأديبٍ في حق هذا الحافظ، ولا حتى بشرح معاني ما يحفظ من القرآن الكريم. في حين أن أعظم وأهم واجب من واجبات الداعية أو المربي هو تزكية النفوس وربطها بالله عز وجل وغرس الإيمان فيها. وهذا هو منهج القرآن الكريم والسنة النبوية في تهذيب النفوس وتربيتها تربية إيمانية.

ولهذا يجدر بنا أن ننظر في القرآن الكريم وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونرى كيف ربّى نفوسَ الصحابة على الإيمان؟ وكيفل نقل الصحابة هذا الإرث الإيماني إلى التابعين؟ وكيف نقلت كل طبقة من العلماء هذا إلى الطبقة التي تليها؟ ونحن هنا لا نتحدث عن العلم، بل عن التربية والتزكية.

فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا زاهدين في الدنيا، مقبلين على الآخرة وهم بين أزواجهم وأولادهم، وفي أعمالهم، دون أن يعتزلوا الناس وينقطعوا للعبادة ومع هذا هم أفضل الناس. وقد قال بكر بن عبد الله المزَني عن سيدنا أبي بكر الذي هو خير بني آدم بعد الأنبياء: "إنَّ أبا بكر لم يفضُل الناس بأنه كان أكثرهم صلاةً وصوماً، إنما فضِلَهُم بشيءٍ كان في قلبه"[1].

وعن عبد لله بن مسعود: "أنتم أكثر صلاة وأكثر صياماً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيراً منكم". قالوا: وبم؟ قال: "كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب منكم في الآخرة"[2]

فجيل الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا أكثر عبادة ممن جاؤوا بعدهم ولكنهم عند الله أفضل. وذلك بما وقر في قلوبهم من محبة الله وتعظيمه ومراقبته، و لأنهم استطاعوا إقامة التوازن بين حاجات الروح ومتطلبات الجسد. وهذا ناتج عن تربيتهم الإيمانية الصحيحة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا المنهج التربوي يبدو واضحاً فيما أوردته أُمَّنا عائشة رضي الله عنها في قولها: "...إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

[1] ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (١٦٤-٢٤١هـ):كتاب فضائل الصحابة. تحقيق وصي الله بن محمد عباس. من منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي التابه لجامعة أم القرى. دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣ م. [١٤١/١] وقال إسناده صحيح إلى بكر بن عبد الله المزَني

[2] أخرجه الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (٣٢١-٤٠٥ هـ): المستدرك على الصحيحين مع تضمينات الأمام الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم من العلماء الأجلاء. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م. [٥]. في كتاب الرقاق رقم(٧٨٨٠) [٣٥٠/٤]. وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ..."[٣]

ويظهر أيضاً هذا المنهج في قول جندب بن عبد الله رضي الله عنه: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ – ونحنُ فتيانٌ حَزاوِرَةٌ[٤]، فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعَلَّمَ القرآنَ ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازدَدنا بِهِ إيماناً".[٥]

ولو نظرنا إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الممتدة لثلاثةٍ وعشرين عاماً، لوجدنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ دعوته بربط قلوب الصحابة بالله عزَّ وجل خلال أول عشر سنوات من البعثة بدون أي تكليف إضافي، أي كانت عشر سنوات إيمانية بحتة لم يُطلب منهم فيها عملٌ ولا جهادٌ، ولم تتوضح أحكام الحلال والحرام بشكل تفصيلي إلا في المرحلة المدنية. فالصلاة بشكلها الحالي فُرضت في السنة العاشرة أو الحادية عشرة للبعثة، والصوم والزكاة في السنة الثانية للهجرة أي بعد خمسة عشر عاماً من البعثة، ولم يُحرَّم الخمر إلا في السنة الثالثة للهجرة أي بعد ستة عشر عاماً من البعثة، وأُمر بالحجاب في السنة السادسة للهجرة أي في السنة التاسعة عشرة من البعثة. وهذا كله له دلالة كبيرة على أن الله تعالى أراد أولاً أن يترسخ الإيمان في قلوب الصحابة، فيصبح العمل سهلاً هيناً، يُقبلون عليه بمجامع قلوبهم ويصبرون عليه.

وما ينبغي التوقف عنده أن قيام الليل هو العبادة البدنية الوحيدة التي فرضت في أول البعثة عند نزول سورة المزمل، ففي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أن سعد بن هشام سألها: "...

---

[٣] رواه البُخاريّ، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاريّ الجعفي (١٩٤-٢٥٦هـ): صحيح البُخاريّ. تحقيق مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٥، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م. [٧].كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، رقم (٤٧٠٧) [٤/ ١٩١٠].

[٤] حزاورة: مفردها حَزْوَرٌ أو حَزَوَّر، وهو الغلام إذا اشتدَّ وقوي.

[٥] رواه ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧-٢٧٥ هـ): سنن الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربيّة، د م، د ت. [٢]. في المقدمة، باب في الإيمان رقم (٦١) وفي الزوائد: إسناد هذا الحديث صحيح، رجاله ثقات.وحَزَاوِرَةٌ: جمع الحزوَّر؛ هو الغلام إذا اشتد وقوي وحَزُم. [٢٣ /١].

أَنْبِئِينِي عن قِيَامِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ يا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ؟ قُلتُ :بَلَى، قالَتْ: فإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ في أَوَّلِ هذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا في السَّمَاءِ، حتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ في آخِرِ هذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ..."[٦]

أي لما نزلت مطلع المزمل: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١-٤].-وذلك في بداية الدعوة لأن ترتيب سورة المزمل الثالثة أو الرابعة نزولاً- فُرض قيام الليل وظلوا يقومون حتى نزل آخرها، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل:٢٠]

وحسب حديث عائشة رضي الله عنها أنهم قاموا سنة. وهناك روايات أخرى ذكرت أن آخر آية من سورة المزمل نزلت بالمدينة، فعن سعيد بن جبير، قال: لما أنزل الله على نبيه: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قال: مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين :إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ... إلى قوله: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ، فخفَّف الله عنهم بعد

[٦] رواه مسلم، بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ): صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث، القاهرة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م. [٥]. كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم (٧٤٦)، [٤/ ٥١٢].

عشر سنين[٧].

ويقول الطاهر بن عاشور: "والروايات تظاهرت على أن قوله إن ربك يعلم أنك تقوم إلى آخر السورة نزل مفصولا عن نزول ما قبله بمدةٍ مُختلفٍ في قدرها، فقالت عائشة: نزل بعد صدر السورة بسنة. ومثله روى الطبري عن ابن عباس، وقال الجمهور: نزل صدر السورة بمكة ونزل إن ربك يعلم إلى آخرها بالمدينة، أي: بعد نزول أولها بسنين. فالظاهر أن الأصح أن نزول (إن ربك يعلم) إلى آخر السورة نزل بالمدينة لقوله تعالى: وآخرون يقاتلون في سبيل الله، إن لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة "[٨].

وسواء كانت مدة افتراض قيام الليل سنة أو أكثر، إلا أننا نعلم أن قيام الليل كان هو التكليف الوحيد الذي كُلِّف به الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة في تلك المرحلة، وهذا يدعونا للتساؤل: ما الذي يميز قيام الليل، ولماذا كان مستثنىً من بين جميع العبادات الأخرى؟

إن ما يميزه قوله جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] فالقيام والناس نيام، ومناجاة العبد لربه بخشوع في ساعات الليل هي أثبت في القلب وأشد تأثيراً في النفس، أي له دور في البناء الإيماني ولهذا كان مستثنىً.

فإذا اتصلت القلوب بالله، وإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان وحلاوة معرفة الله عز وجل، فإن تغيير السلوك والعادات والائتمار بأمر الله تعالى يصبح أسهل وأيسر. فإذا قال تعالى: لا تشربوا الخمر، قالوا: انتهينا ربنا. وإذا قال تعالى: زكوا أموالكم، قالوا: سمعاً وطاعةً بلا تأن ولا تردد ولا تفكير. لأن

---

[٧] ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن ادريس الرازي (٣٢٧ هـ): تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين. تحقيق أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة. ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م. [١٠]. [١٠/ ٣٣٧٩].

[٨] ابن عاشور؛ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر، تونس. ١٩٨٤. [٣٠].تفسير سورة المزمل، [٣٠/ ٢٥٣].

الإيمان الثابت في القلب أوجد الدافع والرادع، فأصبح تطبيقُ كلِّ أمرٍ والانتهاءُ عن كلِّ نهيٍ غايةً في السهولة.

وهذا ما نسميه التدرج في التربية. فتبدأ التربية الصحيحة بربط القلوب بالله، وتهيئتها لتلقي القرآن، ولهذا قال السلف: التخلية قبل التحلية. فكيف يُحَفَّظُ القرآن وتُعطى العلوم الشرعية لقلوب غير خالية، مملوءة بحب الدنيا ومشاغلها والأهواء والشهوات، وربما بعقيدة مشوهة. فهل سيتشرَّبها القلب أم ستبقى معلومات ومحفوظات في الذاكرة لا تدفع لعملٍ، ولا تغير سلوكاً، ولا تنهى عن خلقٍ ذميمٍ أو سوء خلق.

لهذا كانت الخطوة الأولى هي زرع الإيمان قبل كل شيء ليطرد ما عداه من القلب. ولهذا أيضاً كان الصحابة يتلقون القرآن ليُنفِّذوه بشكلٍ فوريٍ، فأعاد صياغةَ حياتهم وفق تعاليمه. فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ، وَالْعَمَلَ بِهِنَّ[٩].

فلم يكن الصحابة يحفظون القرآن بالطريقة التي يقوم الناس بحفظها في هذه الأيام، استظهاراً سريعاً دون معرفة معنىً مما يقرأ ولا غايةٍ، وإنما كانوا يحفظون ليعملوا به ويطبقونه فها هم كبراء الصحابة رضوان الله عليهم يحفظون سورةً واحدةً في أعوامٍ عديدة يتقلبون في معانيها وويتدبرونها ويطبقون ما جاء فيها. فقد روى البيهقي في شعب الإيمان بإسناده إلى ابن عمر قال :تعلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا[١٠]. وذكر ابن سعد في طبقاته أن ابن عمر

---

[٩] رواه الطبري، أو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤هـ- ٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. [٢٦]. ذكر بعض الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة [٧٤ /١].

[١٠] رواه البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (٣٨٤هـ-٤٥٨هـ): الجامع لشعب الايمان. تحقيق مختار أحمد الندوي. مكتبة الرشد، الرياض. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م. [١٤]. رقم (١٨٠٥)، [٣٤٦ /٣].

تعلم سورة البقرة في أربع سنين.[١١] وفي رواية أخرى ذكر الإمام مالك في الموطأ: أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانيَ سنين يتعلمها[١٢].

فلنا أن نتخيل أن قامةً شاهقةً كعمرَ ابن الخطاب وابنِه رضي الله عنهما استغرق حفظُ سورة البقرة منهما هذه السنوات الطوال، وهي التي يحفظها طفل في أيامنا هذه في شهرٍ!. ولكن لو كان الأمر حفظاً بحتاً لحفظاها في أيامٍ، وعقولهم هي العقول آنذاك، ولكن هذه السنوات هي سنوات العمل والتطبيق، لأنهم يعلمون حق العلم أن القرآن نزل دستوراً لحياة المسلم يطبقه في حياته كلها. وكما قال ابن عمر رضي الله عنهما: كانَ الْفَاضِلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا السُّورَةَ أَوْ نَحْوَهَا، وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ مِنْهُمُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْمَى وَلَا يُرْزَقُونَ الْعَمَلَ بِهِ [١٣].

وقد كان المتقدمون يطلقون على حافظ القرآن حاملَ القرآن، أو جامع القرآن، أو قارئ القرآن، وهي منزلة شريفة لا تدانيها منزلة وقد قال صلى الله عليه وسلم: من قرأ القرآنَ فقد استدرج النُّبوَّةَ بين جنبَيْه غيرَ أنَّه لا يُوحَى إليه لا ينبغي لصاحبِ القرآنِ أن يجِدَ مع جَد ولا يجهلَ مع جهِل وفي جوفهِ كلامُ اللهِ"[١٤]

وهذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث التي وردت في فضل حامل القرآن أكدت كلها

---

[١١] ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (٢٣٠هـ): كتاب الطبقات الكبير. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة الخانجي، القاهرة. ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.[١١]. [١٥٣ /٤].

[١٢] رواه مالك، ابن أنس: الموطأ. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م. [٢٦].كتاب القرآن، باب ما جاء في القرآن، رقم (١١)، [٢٠٥ /١].

[١٣] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر(٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت. ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م. [٢٤]. باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء أنه سهل على من تقدم العملُ به دون حفظه. [١/٦٩].

[١٤] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في كتاب فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن جملة، رقم (٢٠٢٨) [٧٣٨ /١].

على المسؤولية التي يأخذها الحافظ على عاتقه بمجرد استظهاره لكلام الله تعالى، فهو ليس كغيره. ونجد أن الصحابة والتابعين فهموا عظم هذه المسؤولية فقد رُوي أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال: إن ابني جمع القرآن. فقال: "اللهم غفراً، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع."[١٥] وقال محمد بن كعب القرظي: "كنا نعرف قارئ القرآن، أو كان يُعرف قارئ القرآن بصُفرة لونه."[١٦] وذلك خوفاً وإشفاقاً من تقصيره في حمل المسؤولية، وهي مسؤولية تطبيق القرآن في حياته كلها، ومسؤولية تبليغه لغيره، وهم يعلمون أن القرآن قد ينقلب حجة على حافظه إن تهاون في القيام بحقه.

ولهذا نجد أن العلماء واستناداً على الأحاديث الشريفة قالوا أن لقب (صاحب القرآن) يطلق على من حفظ القرآن وعمل به، أي مَنْ صَحِبَه كما صحب أبو بكر رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في السَّراء والضَّرَّاء، وكما صدقه في كل كلامه، وشاركه في مجيئه وذهابه، وبثَّه همومه وأحزانه، ولم يأنس إلا بقربه. فكذلك صاحب القرآن لا يجد راحة إلا بين أيات القرآن وعبر صفحاته. وهذا كان حال حاملي القرآن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين وصفهم ابن عمر رضي الله عنهما بقوله: "لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحْدَثَنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ[١٧]."[١٨]

---

[١٥] السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ): الإتقان في علوم القرآن. تحقيق مركز الدراسات القرآنية التابع لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ. [٢]. [٢/ ٤٦٢].

[١٦] أبو عبيد، القاسم بن سلام: فضائل القرآن ومعالمه وآدابه. تحقيق أحمد عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المغرب. ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.[٢]. [١/ ٢٨٨].

[١٧] الدقل: رديء التمر.

[١٨] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في كتاب الإيمان، رقم (١٠١)، [١/ ٩١]. وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً".

لقد كان ابن عمر رضي الله عنهما يصف عصر الصحابة إذ توفي رضي الله عنه في السنة الثالثة والسبعين للهجرة، ومع هذا نجده يتكلم بهذا الكلام عن حافظي القرآن غير العاملين به، فماذا لو رآى رضي الله عنه حال بعض حافظي القرآن اليوم!.

نرى بعضهم يتسابقون على حفظ كتاب الله لنيل الإجازة، أي الشهادة الورقية التي تثبت حفظهم ليُحصِّلوا بها وظيفة في أحد دور تحفيظ القرآن، وهم أبعد ما يكونون في حياتهم عن الهدي القرآني، فلا هم قد انتفعوا بحفظهم، ولا هم نافعون بها أحداً طالما أن هذا الحفظ لا يتجاوز حناجرهم. وطالما أنهم لم يتربوا بالقرآن الكريم، فلن يكونوا قادرين على تربية الجيل التالي من أطفال المعاهد تربية قرآنية إيمانية حقة. إلا ما يقومون به من تصحيح للتلاوة وضبط للمخارج. وهذا أقصى ما يستطيعون فعله.

وحملة القرآن هؤلاء هم كحملة التوراة من قبلهم، والذين قال فيهم عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ...﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وقد قال ابن كثير في تفسيرها: "فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، (يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ) أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، (وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا) ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، (وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ) وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه".[١٩]

فما أقبح أن يكون المرء حاملا لكتابٍ جاهلاً بما فيه، بل عاملاً بعكس ما ورد فيه، وهذا وصف اليهود العلماء غير العاملين بعلمهم. ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً في أحاديثه الخوارج الذين يجتهدون في العبادة اجتهاداً عظيما ولكن دون علم ودون تزكية فَضَلُّوا وأَضَلُّوا.

فمهما بلغ الإنسان في مراتب العلم فإنه لا ينجو إذا لم يترافق تعلُّمُه مع تأديب وتزكية وتربية

[١٩] ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل الدمشقي (٧٧٤هـ): مختصر تفسير ابن كثير. اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، ١٤٠٢هـ-١٩٨١م. [٣]. [٢/ ٦١].

تحضُّه وتحثُّه على العمل بعلمه هذا. ألا يوجد علماء ضالين مضلين كعلماء الرافضة واليهود، أضلهم الهوى والكبر فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله؟. فتلقي العلم شرط لازمٌ للمسلم فالله لا يُعبد بالجهل، ولكنه غير كافٍ فهو بحاجة إلى تربية إيمانية وتزكية نفسٍ، والتي تشكل منارةً للطريق، وحصناً يقي الانحراف.

ولو أردنا ترتيب الأولويات في التربية، فحريٌّ بنا أن ننتهج منهج القرآن والسنة في هذا الأمر. وقد ذكرنا أن التشريع العملي لم يفرض إلا بالمدينة، بينما نزلت آيات العهد المكي مركزةً على العقيدة والبناء الإيماني الصحيح.

فلو صادف المربي من أبنائه أو طلابه من لا يلتزم بالأمور الشرعية، ويتهاون بأداء واجباته، فيجب عليه أن يعلم أن هذا من أعراض المرض، وليس المرض نفسه، والعلاج يكون للمرض لا للعرض. فالمشكلة هنا أن إيمان هذا الابن لم يبلغ من القوة ما يكفي لدفعه لأداء واجباته الشرعية، والحل هو في التركيز على معالجة هذا بتقوية الإيمان ودوافعه في النفس لا بالتركيز على أداء العبادات شكلياً تحت الإصرار أو الضغط. وليعلم المربي أن هذا العمل وإن كان أصعبَ وأشقَّ ويستغرق زمناً أطولَ، إلا أن ثمراتِه هي المرجوة، وهي الدائمة الباقية، وإلا عاد المرض بأعراض قديمة وأخرى جديدة.

وقد يقول قائل إن حفظه للقرآن دليل على إيمانه، نقول قد يكون دليلاً، وقد يكون والعياذ بالله ممن قال فيهم صلوات الله عليه، فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "إنَّ اللهَ تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامةِ، ينزلُ إلى العبادِ، ليقضيَ بينهم، وكلُّ أمةٍ جاثيةٌ، فأولُ من يُدعى به رجلٌ جمع القرآنَ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ، ورجلٌ كثير المالِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ للقارىءِ: ألم أُعلِّمْك ما أَنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا ربِّ، قال: فما عملتَ فيما علمتَ؟ قال: كنتُ أقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ له: كذبتَ، وتقولُ له الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللهُ تبارك وتعالى: بل أردتَ أن يقالَ: فلان قارىءٌ، وقد قيل ذلك" ... ثم ضرب رسولُ اللهِ على رُكبتي فقال: "يا أبا هريرةَ أولئك

الثلاثةُ أولُ خلقِ اللهِ تُسَعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامة."[٢٠]

ونقول أن المرء حين يحفظ القرآن ويتقدم فيه يجد حافزاً كبيراً كونه قدم إنجازاً ملموساً، وكونه ملتزماً مع شيخ يتابعه ويساعده، وما يعينه على ذلك أيضاً وجود أصدقاء يحفظون ويتنافسون معه، وربما حفلاً تكريمياً كل فترةٍ لتشجيع الحُفَّاظ على المدوامة. وهذا يجعل للنفس حظاً في ذلك الحفظ، ومع كون الأمر علنياً في الغالب فيتابع الحفظ، وقد داخله الإحساس بالتفوق والرغبة في الاستمرار.

وما أشدَّ ما يَخاف المرءُ الرياءَ على نفسه في هذه الأيام مع انتشار وسائل التواصل الالكترونية، والتي ساهمت في نشر ما كان يُعتاد إخفاؤه من أعمالٍ، وخاصة العبادات والطاعات. فتجد الطفل الصغير ينشر على صفحته الخاصة صورة شهادة إتمامه حفظَ جزءٍ من القرآن، فتنهال الإعجابات والتعليقات الإيجابية والمباركات والمديح. ويكبر الطفل ويستمر في الحفظ، وتكبر معه الأنا، والرغبة في نشر أعماله على الملأ. ولهذا نقول إن الظروف المحيطة بحافظ القرآن في أيامنا هذه لا تساعده على الإخلاص، بل بالعكس تنازعه الإخلاص والتجرد لله، وتجعل للنفس حظاً كبيراً فيما يقوم به من أعمال، وخاصة إن كانت أعمالاً مادية (بمعنى أن نتيجتها مرئيةٌ للناس)، وتعطيه راحة نفسية لأنه يعتقد أنه أدى واجبه تجاه دينه.

أما لو قام هذا المرء الليالي وذرف دموع الإخلاص –إذا لم ينشر ذلك على وسائل التواصل– فإن أحد غير الله تعالى لن يعلمه، ولن يمدحه أحد، ولن يكرمه أحد في اليوم التالي، ولن يحصل على شهادة قائم ليل.

وبالتالي فإن تركيز المربي على تحفيظ القرآن الكريم فقط لطلابه، وإهمال التزكية والتربية الإيمانية والخلقية قد يقود إلى عواقب وخيمة وخاصة في أيامٍ أصبح فيها الولد مُسيطَراً عليه من قبل أجهزته

---

[٢٠] رواه الألباني، محمد ناصر الدين (١٩١٤-١٩٩٩م): صحيح الترغيب والترهيب. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠ م. [٣]. في كتاب الإخلاص، باب الترهيب من الرياء وما يقوله من خاف شيئاً منه، رقم (٢٢) [١/ ١١٥].

الإلكترونية وما يقرأ فيها، لا من قبل الأهل ولا المربين.

ونعلم أن الأهل حتى وإن كانوا واعين لهذه الأمور، إلا أنه لا يُستغنى عن تربية شيخ أو مربٍ يساعدهم في تعليم الأولاد وتربيتهم وتأديبهم. وكان هذا دأب السلف فما من أحد من العلماء إلا وتتلمذ على أيدي من سبقه من العلماء والشيوخ، ولم نسمع عن عالم أخذ علمه من الكتب فقط، فالكتب لا تربي ولا تؤدب النفس. وفي ذلك نورد قول الإمام مالك رحمه الله: كانت أمي تعممني وتقول لي: "اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه".[٢١] فمهمها كان الوالدان صالحين كانا يحرصان على إرسال أولادهما إلى العلماء ليتأدبوا على أيديهم، وذلك قبل أن يبدؤوا بطلب العلوم الشرعية، كما في قول ابن المبارك: "طلبت الأدب ثلاثين سنة، وطلبت العلم عشرين سنة، كانوا يطلبون الأدب ثم العلم."[٢٢] وقول الحسن بن إسماعيل: سمعت أبي يقول: "كان يجتمع في مجلس أحمد ابن حنبل زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمس مئة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمت"[٢٣] وفي اللسان: "السمت: حسن النحو في مذهب الدين، وإنه لَحَسَنُ السمت، أي حسن القصد والمذهب في دينه ودنياه، والسمت هيئة أهل الخير يقال ما أحسن سمته! أي هديه".[٢٤]

فالدين لا يؤخذ إلا من العلماء الأجلاء، يبدأ معهم طالب العلم فيتعلم أولاً من أدبهم وأخلاقهم، وطريقة دخولهم وخروجهم، وحركتهم وسكونهم، وجلوسهم وقيامهم، وحديثهم وسكوتهم، ونظافتهم ولباسهم، وخشوعهم وزهدهم، وسلوكهم وتعاملاتهم مع كل كائن آخر، ثم يتعلم ثانياً من

---

[٢١] القاضي عياض، ابن موسى بن عياض السبتي(٥٤٤هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب. ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م. [١٢]. [١/ ١٣٠].

[٢٢] ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد علي الدمشقي الشافعي (٨٣٣هـ): غاية النهاية في طبقات القراء. تحقيق ج برجستراسر. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م. [٢]. باب العين، [١/ ٣٩٩].

[٢٣] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد(٥١٠-٥٩٧هـ): مناقب الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر، الرياض. ط٢، ١٤٠٩هـ. ص٢٨٨.

[٢٤] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب. دار صادر، بيروت. ط٣. ١٤١٤هـ. [١٥]. [٤٦- ٤٧ /٢].

علمهم. ولهذا قال ابن وهب: الذي تعلمنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه."[٢٥] تشرَّبوا أخلاقه وزهده وورعه خلال سنواتٍ من الملازمة، ثم أخذوا علمه. أما إن قام المربي بتحفيظ الطالبِ القرآنَ فقط، وتركِهِ تتناوشه وحوشُ العصر دون تحصينٍ بدرعٍ إيمانيٍّ أخلاقيٍّ فكريٍّ، فلا عجب أن يضيع ويفقد بوصلته.

وبعض المربين يبدأ بإعطاء العلم الشرعي للطالب مع حفظه القرآن، فتراه يدرس الفقه والسيرة والتفسير، ومع هذا لا ترى أثراً واضحاً لهذه العلوم على حياته وعلى عباداته وعلى صلته بالله تعالى، بل قد تراه أسوأ حالاً ممن لا يتعلم هذه العلوم. وهذا يعود إلى تدريس هذه العلوم كما تُدرَّس الرياضياتُ والعلوم والتاريخ، بل إن هذه المواد العلمية قد تعطى بطريقة مرنة مبسطة محببة إلى الطلاب ليفهموها. وإذا أعطيت وفق ما تفرضه وزارات التربية وكما يقترحه المشرفون التربويون بأن يحتوي الدرسُ على أهداف قيمية أو وجدانية إلى جانب أهداف الدرس المعرفية والسلوكية، عندها تكون مستوفية لجوانب التعلم جميعها ومنها الجانب القيمي الأخلاقي الذي يربي ويهذب النفس. ولكن طريقة بعض المربين الذين يدرسون العلوم الشرعية في المعاهد تقوم على تقديم معلومات جافة تُقرأُ قراءةً من الكتب، وما يهمهم هو حفظ الطالب للمعلومات لا غير، لا تحمل دروسهم توجيهاً، ولاهدفاً إيمانياً أو أخلاقياً، ولا تأثيراً يجعل الطالب يقرر التغيير، فلا يتحرك قلبه، ولا تتغير مشاعره. ويخرج من الدرس ما ازداد إلا معلومة ستتعلق في عنقه تُحاججه يوم القيامة.

وما أهمية العلم إذا لم يتحول إلى عمل ينقذ صاحبه يوم القيامة؟ وقد قال أبو الدرداء: "ويل للذي لا يعلم مرة وويل للذي يعلم ثم لا يعمل سبع مرات".[٢٦] وهو القائل: "إن أخوف ما أخاف إذا لقيت ربي تبارك وتعالى أن يقول لي قد علمت فماذا عملت فيما علمت".[٢٧] فالفائدة تجنى من هذه

---

[٢٥] القاضي عياض، ترتيب المدارك. [١٢٧ /١].

[٢٦] ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (٢٤١هـ): الزهد. تحقيق محمد عبد السلام شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م. ص١١٧

[٢٧] م. س. ص١١٢.

العلوم عندما يفهم معناها ومغزاها، ويقوم بتطبيقها ويُسقطها على حياته.

إن تعرُّفَ الإنسان على الأحكام الفقهية للصلاة لا يعني أن هذا سيدفعه إلى الصلاة، ولا يعني أنها ستزيد خشوعه فيها أو أنها ستدفعه إلى قيام الليل. وإن تعريف المرء بالأحكام التجويدية لآياتٍ معينةٍ وشرح معاني مفرداتها الصعبة، وتعرُّف أسباب نزولها لا يعني التأثر بها وتطبيقها. إنَّ المربي بحاجة لأن يخاطب عقل وروح ووجدان المتلقي بهذه الآيات، ليشعر بأنه المعني بها ويسقطها على واقعه.

فالعلم شيءٌ، والإرادة والرغبة والدافع شيءٌ آخرُ، وإلا لما رأينا طبيباً يدخِّن التبغ. ولما رأينا خريجة معهد إعداد للداعيات نامصةً تسابق بنات الدنيا في تزيُّنها. وهذه الإرادة التي توجه المرء نحو تطبيق هذا العلم، وتحبب الطاعات إليه، وتلك الرغبة في تغير في نفسه وسلوكه لا تنبع إلا من التربية الإيمانية والتزكية المستمرة إلى جانب العلم.

ومن أهم ما يعتمد عليه في مسيرة البناء الإيماني هو بناء القدوات الصالحة التي سيستقي منها الطالب دينه وخلقه وأدبه. واتخاذ القدوات طبع متأصل في الإنسان يفعله بشكل تلقائي. والمرء يتخذ عادةً قدواته من الشخصيات التي تثير إعجابه واستحسانه، والتي يأمل أن يتحلى ولو ببعض صفاتها ويتمكن من القيام ببعض أعمالها، فينجذب نحوها ويحاكيها أملاً في بلوغ بعض ما بلغته. ونظراً لصغر سن الطلاب وانسياقهم وراء عاطفتهم، فإن تقليدهم يكون تقليداً أعمى، فلا يميزون بين حق وباطل، ولا يطلبون حجة أو برهاناً، بل ينساقون وراء من يعجبون به فإما أن يوردهم المهالك أو يرتقي بهم إلى المعالي.

وأول أسوة لنا ولأولادنا في جميع الأوقات وفي جميع المجالات هو الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، فسيرته هي الميزان الذي توزن به الأعمال فما وافق سلوكه وهديه كان مقبولاً، وفهم سيرته هو عون على فهم القرآن، لأنه صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن، وحياته كانت تطبيقاً عملياً

للقرآن، وإن معرفة تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم وأخلاقه العظيمة، وحبه لأمته، وما عاناه في سبيل إيصال الدعوة إلينا تزيد من محبته في قلوبنا[٢٨]. وعلى المربي ألا يجعل من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أحداثاً تاريخية تُحفظ، بل يجعلها بوصلة لحياة الطالب ويحكي أحداثها مع مغزاها والدروس التي يمكن أن يستفيدها الطالب ويطبقها في حياته.

والقدوة الثانية التي ينبغي أن تبنى في عقول وقلوب طلاب العلم هي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وهذا لا يتم بسرد أحداث حياتهم سرداً تاريخيا مملاً، بل بتحويل كل حدث في حياتهم إلى جرعة إيمانية يفهم فيها الطالب المغزى والهدف، ويعيش تفاصيل الحدث كأنه يراه بعينيه ويشعر به. فعندما يرسخ في ذهنه كيف تلقى الصحابي الدعوة، وكيف تعامل مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف ضحى في سبيل الدين ونشر الدعوة، وكيف بذل دماءه وماله وكل ما يملك ليحافظ على دينه، وكيف افتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفس والمال والولد لشدة حبه له، سيعجب بهذا الصحابي وسيكون قدوته في دينه ودنياه وسيسأل نفسه ماذا قدمت لديني من تضحيات، ولو كنت مكانه ماذا كنت فاعلاً، بدلاً من أن يقضي وقته متقلباً بين قنوات اليوتيوب ومشاهير التيك توك متأملاً أدق تفاصيل حياتهم الخاصة فيعرف عنهم أكثر مما يعرف عن عمر بن الخطاب أو حذيفة بن اليمان أو مصعب بن عمير رضي الله عنهم أجمعين.

ويستطيع المربي أن يكثر من ذكر التابعين وتابعيهم والعلماء المتقدمين والمتأخرين والصالحين من هذه الأمة، والذين ضربوا أروع الأمثلة في الزهد والورع والتعلق بالله عز وجل، ليكونوا قدوات لهذا الجيل.

ومن أهم القدوات التي يتخذها الطالب عادة المربي نفسه، وهذا أخطر دورٍ للمربي، وهو ما يجعله يحمل مسؤولية مضاعفة فلا بد أن يضع في حسابه أنه في كل حركاته وسكناته، وفي كل أقواله وأفعاله، ومظهره ولباسه يمثل مصدراً يستقي منه الطالب بثقة واطمئنان، فيتقمص شخصيته وأخلاقه،

[٢٨] ينظر مجموعة زاد: السيرة النبوية (١). العبيكان للنشر، الرياض. ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م. ص١١-١٢

ويتشرب معتقداته وأفكاره، وباختصار يشكل قدوة للطالب. يقول الإمام الغزالي "الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا."[٢٩] ولهذا يجب أن يُعَدَّ المربي إعداداً خاصاً قبل أن يتصدر لهذه المهمة، وبعدها ينبغي أن يراقب نفسه فلا يرضى لنفسه إلا المعالي من الأمور والعزائم من الأعمال، ولا يتتبع الرخص والفتاوى الشاذة، ويربي نفسه على الصدق والتواضع والزهد وحب الخير، ويتمسك بمحاسن الأخلاق ويتأدب بآداب الإسلام، فضلاً عن الالتزام بالشرع.

وليعلم أنه يقوم بأعظم وأشرف مهمة وأن كل شخص يهديه الله على يديه، وكل طالب يتأثر به فيتطبع بأخلاقه ويقتبس من دينه فهو ميزانه يوم القيامة. ويمكننا القول أن المربي هو أخطر قدوة لطلابه فإن علا علوا وإن سقط هووا وراءه، وخاصة وأن الطلاب سيلازمونه فترةً طويلةً، وسيبني معهم علاقات شخصية قائمة على الحب والاحترام والتقدير.

ومن أهم أعمال المربي العمل على إرشاد وتوجيه طلابه التوجيه الصحيح ليكتشفوا عيوبهم، ويعلمهم كيف يصلحوا هذه العيوب، ويعينهم في تقلباتهم، ويصحح لهم أخطاءهم، ويرعاهم معنويا ومادياً إن استطاع، ويستر عيوبهم، وينصحهم ويقنعهم برفق وتأن وشفقة، مع حزم وحكمةٍ بدون قسوة، وإذا لمس من أحدهم تفوقاً في مجال ما شجعه ومدحه، وأعطاه الثقة وأفسح له المجال ليتحمل المسؤولية. فإذا أحس طلاب العلم أن المربي كالوالد المشفق عليهم، اتخذوه قدوةً، واستجابوا لكل توجيهاته. وينبغي عليه أن يتدرج معهم حسب أعمارهم وسوياتهم الإيمانية ويرتقي بهم شيئاً فشيئاً من العبادات البدنية إلى العبادات القلبية، إي من الإسلام إلى الإيمان فالإحسان.

وينبغي على المربي أن يهتم بإصلاح نفسه ويتعاهدها بالتطوير والتحسين باستمرار. وأن يستمر في طلب العلم ليكون قدوة لطلابه في ذلك فيشجعهم على طلب العلم الديني والدنيوي معاً

---

[٢٩] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(٤٥٠-٥٠٥هـ): إحياء علوم الدين. دار ابن حزم، بيروت. ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م. ص٦٢٨.

ليكونوا نواة بناء لمجتمعاتهم وليبرز منهم قادة وعلماء يخرجون الأمة مما هي فيه من تخلف وفقر وضعف. وهذا سنتناوله فيما بعد بشيء من التفصيل إن شاء الله.

أما عن منهجه الذي سينتهجه في تربية وتزكية نفوس طلابه فهو منهج القرآن الكريم والسنة الشريفة في التزكية والذي يمكننا فهمه من خلال أمثلة[٣٠] من القرآن الكريم وأولها الحادثة التي نزل فيها صدر سورة الأنفال. فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: لَمَّا هُزِمَ الْعَدُوُّ يَوْمَ "بَدْرٍ" وَاتَّبَعَتْهُمْ طَائِفَةٌ يَقْتُلُونَهُمْ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاسْتَوْلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ . فَلَمَّا نَفَى اللَّهُ الْعَدُوَّ، وَرَجَعَ الَّذِينَ طَلَبُوهُمْ، قَالُوا: لَنَا النَّفَلُ ;نَحْنُ طَلَبْنَا الْعَدُوَّ وَبِنَا نَفَاهُمُ [اللَّهُ] وَهَزَمَهُمْ، وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنَالُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً فَهُوَ لَنَا؛ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ: وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ مِنَّا، نَحْنُ أَخَذْنَاهُ، وَاسْتَوْلَيْنَا عَلَيْهِ فَهُوَ لَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالسَّوِيَّةِ[٣١].

فاختلف الصحابة فيما بينهم حول تقسيم الغنائم، وانتظر الرسول صلى الله وعليه وسلم الوحي من السماء، فنزلت الآيات لتقول لهم إن الأنفال التي تسألون عنها هي ملك لله وللرسول وليست لكم، وبدلاً من ذكر تقسيمها ذكرتهم بتقوى الله ونبذ خلافات نشأت من أجل عرض دنيوي زائل، وأن الإيمان يقتضي طاعة الله وطاعة رسوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:١].

ثم بدأت الآيات تذكرهم بالإيمان وعلاماته، وأوردت صفات المؤمنين ليعرض كل صحابي نفسه على هذه الصفات، ويرى هل هي موجودة فيه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ

---

[٣٠] يُنظر الهلالي، مجدي: الإيمان أولاً فكيف نبدأ به. دار التوزيع والنشر الإسلامية، بور سعيد. ١٤٢١هـ. ص٣٣-٣٧.

[٣١] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (٤٦٨هـ): أسباب النزول. تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان. دار الإصلاح، الدمام. ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م. ص٢٣٢.

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢-٤]. وأصبح الصحابة يفكرون بمدى تحقيقهم لمتطلبات الإيمان الحق بدلاً من تفكيرهم بالغنائم. وبواجباتهم قبل حقوقهم.

ثم ذكرهم بأنهم كانوا كارهين لقتال المشركين الذين خرجوا من مكة، وأنهم كانوا يريدون عير أبي سفيان (غير ذات الشوكة) غير المنيعة والتي فيها أموال كثيرة، فقال لهم: "كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء وهم النفير الذين خرجوا لإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً."[٣٢]

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال:٥-٨]. فيقول لهم الله إنه يدبر فيحسن التدبير لهم وينصر دينه، وإن كان يظهر لهم خلاف ذلك. وتمضي السورة تذكرهم بما منَّ الله عليهم من نصرٍ عظيم، فهذا النصر هو من عند الله وليس من عندهم ولا بفضلهم ولا بقوتهم ولا ببأسهم، فهم الذي أمدهم بالملائكة تقاتل معهم فاطمأنوا، وهو الذي غشاهم النعاس أمنة منه وأنزل الغيث فشربوا وتطهروا وأمسك الأرض تحت أقدامهم، وثبت قلوبهم، وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، وأنه هو الذي وفقهم وأعانهم وسدد رميهم لينتصروا نصراً مبيناً في هذه الغزوة فله الفضل والمنة. فهل سنجد صحابياً يفكر في غنائمها؟!.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ

[٣٢] مختصر تفسير ابن كثير. [٢/٨٦].

اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٩-١٩].

ثم يأمرهم بطاعته وطاعة رسولهم ويزجرهم عن ترك أوامره كالمشركين والمنافقين في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٠-٢٣].

ثم تُذَكِّرهم السورة بضرورة الاستجابة لله عز وجل ورسوله الكريم والانقياد لأوامرهما لأن فيها حياة القلوب وصلاحها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

"قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. وقال السدي: يحول

بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. "[٣٣] وها هي نعمة جديدة يمن بها الله عليهم، فهو الذي هداهم وثبت قلوبهم على الإيمان، وهي أعظم النعم على الإطلاق.

ثم يحذرهم فتنةً تعم المسيء وغيره: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥]. وعن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: "أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب."[٣٤]

وفي الآية التالية: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الأنفال:٢٦]. "ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقيض لهم أهلها، آووا ونصروا وواسوا بأموالهم."[٣٥]

فلننظر حال الصحابة وهم يسمعون الآيات تذكرهم بإيمانهم وفضل الله عليهم وواجباتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهل سيكون فيهم من يفكر في نصيبه من الغنائم؟

وتستمر الآيات... وبعد أن تجردت القلوب لله يأتي توزيع الغنائم في الآية: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال:٤١].

---

[٣٣] مختصر تفسير ابن كثير [٢/٩٥].

[٣٤] م. س. [٢/٩٦].

[٣٥] مختصر تفسير ابن كثير. [٢/٩٧].

إن ما استعرضناه هو نموذج من نماذج التربية القرآنية للصحابة ومَن بعدَهم، فإذا بدأ المسلم يميل إلى الدنيا وإغراءاتها، فالحل هو التذكير الإيماني، التذكير بنعم الله تعالى وفضله عليه، والتذكير بحاجة العبد إلى ربه، وأن طاعته تحيي القلب، وأن ما عند الله خير من الدنيا وما فيها، وأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته والتوكل عليه. وهذا ما يحتاجه هذا الجيل بشدةٍ، يحتاج من يقول له باستمرار: أنت عبد لله، اتق الله، كن مع الله، الدنيا فانية وما عند الله باق.

ومن أمثلة ذلك في السنة النبوية كثيرة منها ما حدث في غزوة حنين، حيث كان عدد المسلمين كبيراً فاغتروا لدرجة أنهم قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. وكان الكفار قد نصبوا لهم كمائن، فلما نزلوا الوادي خرج الكفار من بين الأشجار، واشتدت المعركة وهزم المسلمون، وتولى كثير منهم نحو مكة ولم يبق إلا القليل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويصف هذا المشهد العباس رضي الله عنه فيقول: "شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ قَالَ عَبَّاسٌ وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ[٣٦] فَقَالَ عَبَّاسٌ وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا[٣٧] فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ قَالَ فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ[٣٨] عَلَى أَوْلَادِهَا فَقَالُوا يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ قَالَ فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ[٣٩]

---

[٣٦] السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها

[٣٧] صيتاً: قوي الصوت

[٣٨] عطفة البقر: أي عودهم لمكانتهم وإقبالهم إليه صلى الله عليه وسلم عطفة البقر على أولادها أي كان فيها انجذاب مثل ما في الأمات حين حنت على الاولاد.

[٣٩] الدعوة في الأنصار: الاستغاثة والمناداة عليهم.

يَقُولُونَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ قَالَ ثُمَّ قُصِرَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ قَالَ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ قَالَ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى قَالَ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا"[٤٠]

وهنا نرى كيف عمد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تذكير المسلمين ببيعتهم له تحت الشجرة، فقد بايعوه على قتال قريش وعدم الفرار من الموت، فإما النصر وإما الشهادة. وذكرهم بأنهم هم الذين رضي الله عنهم: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[الفتح:١٨]. وبأن يد الله فوق أيدهم، تلك الأيدي التي امتدت مبايعة للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:١٠].

فأقبلوا سراعاً وقاتلوا قتالاً شديداً حتى هزموا هوازن وثقيف، فكيف غير الرسول صلى الله عليه وسلم سلوك الصحابة من تولٍّ إلى إقبال؟ إنه التذكير والموعظة وتحريك المشاعر، ذكرهم بعهدهم، وصدقهم مع الله، وبث فيهم روح الإيمان وعزيمته. ومن لا يقبل على الآخرة وعظيم أجرها إذا ما ذكر بها! ومن لا يدبر عن الدنيا وفتنها إذا علم أنها ستورده المهالك!.

وهكذا فرسولنا عليه الصلاة والسلام ذكرهم بأنهم يريدون الآخرة، وأن الدنيا بكل أهوائها وشهواتها لا تغرهم، فامتلأت صدورهم إيماناً وقوة وشجاعة فأقبلوا نحوه يريدون الجهاد، واستسهلوا الموت في سبيل ما يؤمنون به. إن هذا التذكير الإيماني يدفع ببساطة إلى الموت، وهذا ما نتحدث عنه،

[٤٠] رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين. رقم (١٧٧٥)، [٣/١٣٩٨].

إنه الدافع الداخلي الذي يجعل أوامر الله تعالى سهلة محببة إلى النفس مهما خالفت الأهواء والمصالح الدنيوية العابرة. بل ويجعل الدنيا في عيني المرء جيفةً كما وصفها الرسول عليه أفضل السلام وأتم التسليم.

ومن أجمل وأرق الأمثلة على منهج التربية الإيمانية عند الرسول صلى الله عليه وسلم هو ما حدث بعد غزوتي حنين والطائف. فبعد أن غنم منها المسلمون غنائم لا تُحصى ولا تُدرى أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم ممن يريد أن يتألفهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام عطاءً عظيماً. وكان هؤلاء من أهل مكة، فوجد الأنصار في أنفسهم من ذلك ويحدثنا أبو سعيد الخدري عن هذا الموقف فيقول: "لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ. قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ. قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ. قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ. أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا

فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ[41] مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ. قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا."[42]

وهنا أيضاً نرى كيف خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم الأنصار خطاباً غايةً في الرِّقَّة والشَّفافية، مغموساً في العاطفة. فقال لهم ما يعتمل في نفسهم، وأكد لهم أنه لم ينس أنهم هم الذين صدقوه ونصروه وآووه وواسوه بكل ما يملكون، وذكرهم بفضل الله عليهم بأن هداهم وأغناهم ونصرهم وألف بين قلوبهم، وهوَّن عليهم أمر الغنائم ووصفها بأنها لعاعة، فهي بقية قليلة من عرض زائل، والباقي هو الإيمان والعمل، وبين لهم أنما أعطى تأليفاً لقلوب أولئك الرجال، وأنه ما كان ليفضِّلَ مسلماً على مسلمٍ بسبب قوميته أو جنسه أو لونه. ووكلهم إلى إسلامهم، فأصبح لسان حال كل أنصاري يقول: يكفيني إسلامي وإيماني، وكفى بها نعمة من الله عز وجل، لا أريد شيئاً من الدنيا. وتألفهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعدَّ نفسه منهم ومدحهم وذكرهم بنصرتهم له، وجعلهم يوازنون بين من عاد بالغنائم ومن عاد برسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدوا أنهم هم الفائزون وأن ما أخذوه من الأجر أكبر وأفضل، فقالوا رضينا.

وها هو إمام المربين صلوات الله عليه يعلمنا كيف نراعي الاعتراضات، ونزيل التوتر بالحكمة والمنطق، وكيف نُزَهِّد في الدنيا ونرغب في الطاعات عبر تبيان مآلات الأمور، وكل ذلك بأسلوب

---

[41] اللعاعة: البقية اليسيرة من كل شيء.

[42] ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني الذهلي (١٦٤-٢٤١ هـ): مسند أحمد ابن حنبل. تحقيق أحمد معبد عبد الكريم. جمعيّة المكنز الإسلامي ودار المنهاج، جدة، ٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ. [١٢]. باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، رقم (١١٧٢٥). [٢٤١٨ /٥].

عاطفي رقيق يخاطب الوجدان، ومنطقي يخاطب العقل.

فالتذكير الإيماني هو الحل، لأن الإيمان يفعل المعجزات، هو الذي صبر أصحاب الأخدود على النار، وهو الذي قلب شخصية الخنساء رضي الله عنها من مدمنة على رثاء أخويها إلى امرأة تدفع بأولادها الأربعة دفعاً إلى الشهادة، وهو الذي جعل بلال الحبشي رضي الله عنه يتحمل صنوف العذاب القاسي وهو يردد أحدٌ أحدٌ، وهو الذي أخرج المهاجرين من بلدهم تاركين أهليهم وأموالهم وبيوتهم، وهو الذي جعل الأنصار يبرعون في حسن استقبال المهاجرين، وهو الذي جعل أبو طلحة رضي الله عنه يستضيف ضيف رسول الله على فقره وحاجته، وهو الذي جعل الفتى المِنَعَّم المدلل مصعب بن عمير رضي الله عنه يترك مال أبويه ويمشي في طرقات مكة بثياب مرقعة، ويتقشَّر جلده من شدة الجوع في الحصار.

الإيمان هو الذي يجعل الإنسان يعيش في الدنيا وعينه على الآخرة، هو الذي يدفع به ليضحي بأعز ما يملك في سبيل دينه، هو الذي يلجم النفس ويكبحها، وهو الذي يهون عليه الدنيا ومتاعها، فلا يغريه منها إلا ما كان سبيلاً للوصول إلى الآخرة. الإيمان وليس شيئاً آخر. وهذه مشكلة من أهم مشكلات المسلمين قديماً وحديثاً، وهي انفصال العلم عن العمل عن الإيمان، فترى كلاً منها في وادٍ.

فترى العالم بالحلال بالحرام والحقوق والواجبات والفضائل في الإسلام ولكنه لا يطبق شيئاً من ذلك. فينفصل العلم عن العمل في الواقع، أو أنه يطبقه أعمالاً جوفاء وحركات شكلية، تتعب الجوارح ولا تؤثر في النفس ولا تحيي القلب. وترى أيضاً حافظ القرآن يعيش حياة لا تتوافق مع ما جاء في القرآن، فما السبب؟

السبب هو النقص، وهو ليس نقصاً في العلم وليس نقصاً في العمل، فقد يكون كلاهما موجود، ولكن النقص في الإيمان الذي يحيي القلب، والذي يدفع العالم دفعاً إلى العمل، ويدفع العامل

دفعاً إلى إحياء عمله بالإخلاص والتقوى والمراقبة.

وهذه هي الغاية من التزكية والتربية الإيمانية التي نتحدث عنها، فدورها الأساسي هي دفع الإنسان ليحول علمه إلى عمل خالص كما يحب الله تعالى ورسوله الكريم. وهذا جوهر التربية لطالب العلم، وهذا هو النافع والباقي.

ولينظر المربي إلى طالب العلم على أنه أمانة وضعها رب العالمين عز وجل بين يديه، بل هدية أهداه إياها تأخذ بيده إلى الجنة، كما في حديثه صلى الله عليه وسلم: "...فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ."[٤٣] فلا ينبغي عليه أن يكتفي بتحفيظه القرآن، بل يدعمه بالوعظ والتزكية والتربية، حتى وإن بذل جهداً مضاعفاً، ولكن هذا الجهد لا بد منه وهو الضمان لتخريج طلاب علم عاملين أنقياء أتقياء يخافون الله، ليكون العمل مكتملاً. أما أن يُحفَّظ الطالبُ القرآنَ ويترك، فأنصاف الأعمال قد لا تعطي ثمراً، وقد تكون النتيجة عكسية والعياذ بالله. فنحن لا نريد تخريج طلابَ علمٍ قليلي الأدب، أو سفهاءَ أو فاحشي القول والفعل، أو فاسقين، أو محاربينَ الإسلامَ مسالمينَ خصومَهُ. بل إن من أول أهداف أي معهد لتعليم القرآن هو تخريج جيلٍ عالمٍ بدينه متبعٍ قرآنَه وسنةَ نبيه صلوات الله عليه، ورعٍ عاقلٍ نبيهٍ خلوقٍ.

وهذا النهج في التربية والتزكية هو نهج الرسول صلى الله عليه وسلم ونهج الصحابة من بعده. فعن شَقِيْق بنُ سَلَمَةَ قال: كانَ عبدُ اللهِ يُذَكِّرُنَا كُلَّ يَومِ خَمِيسٍ، فَقالَ له رَجُلٌ: يا أَبَا عبدِ الرَّحْمَنِ إنَّا نُحِبُّ حَدِيثَكَ وَنَشْتَهِيهِ، وَلَوَدِدْنَا أنَّكَ حَدَّثْتَنَا كُلَّ يَومٍ، فَقالَ: ما يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ إلَّا كَرَاهِيةُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، إنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ كانَ يَتَخَوَّلُنَا بالمَوْعِظَةِ في الأيَّامِ، كَرَاهِيةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا[٤٤]. فكان ابن مسعود يعظهم مرة في الأسبوع حتى لا يملوا وذلك أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ودروس التزكية والوعظ نعني بها التذكير بالآخرة ومعادها، وعاقبة الدنيا وتقلبها بأهلها، وفنائها

[٤٣] رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، رقم (٢٨٤٧)، [٣/ ١٠٩٦].

[٤٤] رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم (٢٨٢١)، [٤/ ٢١٧٢].

وزوال ما فيها، وذكر أحوال المكذبين والعاصين من الأمم السابقة ومآلهم وما استحقوا من عقوبات، يذكرهم المربي بالتوبة ومحاسبة النفس ومجاهدتها، يحدثهم عن أهوال يوم القيامة وما يتبعها من ثواب وعقاب، عن أهل الجنة ونعيمها، وعن أهل النار وعذابها، يذكرهم بالموت والاستعداد له، ويعرفهم بأحوال القلوب وأمراضها ودوائها، ويؤكد على صحبة الصالحين والتأسي بهم.

وهذا ما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته فترق قوبهم ويخشعون ويبكون، فينتقل بهم إلى حالة من قوة الإيمان والزهد في الدنيا تجعلهم يعتقدون أنهم إذا انصرفوا إلى أرزاقهم ومعايشهم في الدنيا فقد نافقوا،كما في حديث حنظلة حيث يقول: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقالَ: كيفَ أَنْتَ؟ يا حَنْظَلَةُ قالَ: قُلتُ :نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قالَ: سُبْحَانَ اللهِ ما تَقُولُ؟ قالَ: قُلتُ :نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن عِندِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا[٤٥] الأزْوَاجَ وَالأوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ[٤٦]، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حتَّى دَخَلْنَا علَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يا رَسُولَ اللهِ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَما ذَاكَ؟ قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن عِندِكَ، عَافَسْنَا الأزْوَاجَ وَالأوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إنْ لو تَدُومُونَ علَى ما تَكُونُونَ عِندِي، وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علَى فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[٤٧].

فالغاية هي ترقيق القلوب بالموعظة، وزرع الخوف والخشية من الله تعالى فيها، فيصبح هوى النفوس تبعاً لما جاء به الدين، فلا تتأثر بمغريات الدنيا وتتخلى طواعية عن شهواتها، بل وتنفر منها.

---

[٤٥] عافسنا: عالجنا معايشنا وحظوظنا.

[٤٦] الضيعات: جمع ضيعة، وهي معاش الرجل من مال أو حرفة أو صناعة.

[٤٧] رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، رقم (٢٧٥٠)، [٤/ ٢١٠٦].

وتتوق إلى الجنة ترغب في الاخرة. وكم نحن بحاجة إلى استحضار القلب والمداومة على هذه الأحوال من الذكر والخشية والخوف من الله تعالى، ليَصْلُحَ ديننا، ونحققَ عبوديتنا لله تعالى.

وعلى المربي أن يتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في هذا فيختار الأوقات المناسبة لطلاب العلم، وألا يضغط عليهم بوقتٍ أو كلامٍ أو أسلوبٍ حتى لا ينفروا. ويختار من المواضيع ما هو مناسب لأعمارهم واستعدادهم وسوياتهم الإيمانية وخلفياتهم المعرفية والدينية، وهذا يتطلب منه معرفتهم ومعرفة أحوالهم جيداً. ولهذا عندما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمن قال له: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ،..."[٤٨]. فدعوة المشركين تختلف عن دعوة أهل الكتاب وتلك تختلف عن دعوة الملحدين، والأخيرة تختلف عن دعوة المسلمين البعيدين عن دينهم. فكلٌ له خطابُه، وكلُّ مستوىً عمريٍّ له خطابُه، وكلُّ مستوىً ثقافيٍّ له خطابه، وكلُّ سويةٍ إيمانيةٍ لها خطابُها.

وكلما أحس طالب العلم بأن هذه الدروس تخاطبه وتلبي حاجاته وأسئلته وتقربه من الله تعالى، كلما تعلق بها أكثر. ويتبع هذا حكمة المربي في جذبه إلى حضور هذه المجالس، وتحبيبه بها، وأن لا يكلمه في مخالفات وأخطاء بشكل مباشر وإنما بالتعريض والتلميح، وأن يتجنب إحراجه وإظهاره بمظهر الضعيف الناقص. فلا ينبغي أن يدقق المربي على كل خطأ يبديه طالب العلم، فإن التغاضي عن بعض الزلات والتعامي عنها، أو التعريض بها في وقت لاحق، والتركيز على إصلاح العقيدة وتنمية الإيمان وزرع الخوف من الله تعالى في قلبه سيزيل هذه الأخطاء تلقائياً. أما الحديث في مخالفات بسيطة وخاصة الشكلية منها قد تجعل طالب العلم يترك الدروس إلى غير رجعة، وبهذا يكون قد حُرم الفائدة نهائياً. ولهذا يجب أن يتحلى المربي بالحكمة ثم باللين والرفق وحسن التعامل ومراعاة الصغار والكبار وتأليف قلوبهم.

وليبدأ بأصول الدين قبل الفروع، فيتناول أركان الإسلام بادئا بالتوحيد والصلاة، وليتحدث

[٤٨] رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٢٥) [٢/ ٥٤٤].

عن أهمية العلم وفضل حضور مجالسه، وعن بر الوالدين وحسن الخلق، وليتوسع في الآداب، مستعيناً بما ورد في القرآن السنة وأثار الصحابة والتابعين وما جُمع في كتب الزهد والرقائق، وليعطي الطالب من خبراته وتجاربه في الحياة.

ولتكن دروسه حية، فيها زخم وعاطفة، وفيها إسقاط على الواقع، وفيها مناقشة تجعل طالب العلم يسأل نفسه ويحاسبها: ماذا فعلت؟ وماذا ينبغي أن أفعل؟ كيف أطبق هذا الكلام على نفسي؟ هل هو صعب؟ كيف أجعله سهلاً؟ كيف أتدارك تقصيري؟ كيف أبرهن على إيماني؟.

كما يمكن للمربي الخبير أن يتحين الفرص ويستغلها ليحولها إلى فرصة للوعظ، فيرتجل حسب الموقف لتكون الفائدة أكبر. فالرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يدع فرصة مواتية إلا وحولها إلى وسيلة لتعليم الصحابة فلما قَدِمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إذَا وجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أخَذَتْهُ، فألْصَقَتْهُ ببَطْنِهَا وأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أتُرَوْنَ هذِه طَارِحَةً ولَدَهَا في النَّارِ قُلْنَا: لَا، وهي تَقْدِرُ علَى أنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: للَّهُ أرْحَمُ بعِبَادِهِ مِن هذِه بوَلَدِهَا[٤٩].

وكما تتدرج المناهج المدرسية بطالب المدرسة من أدنى الصفوف إلى أعلاها، فلا يصح أن يدخل من عمره ست سنوات إلى الصف الثامن أو العاشر، فكذلك المربي في المسجد أو المعهد يتدرج بطالب العلم من أدنى السويات الإيمانية إلى أعلاها، فيبدأ بالأمور البسيطة فيثبت عقيدته ثم صلاته ثم باقي الفرائض، فإذا ارتقى الطالب حدثه عن النوافل والخشوع والإخلاص، فإذا ارتقى تحدث عن أمراض القلوب وغيرها.

وليحضهم أيضاً على الاهتمام بدراستهم الأكاديمية للعلوم الدنيوية، ففي عصر العلم والتسابق بين الأمم لا ينفع الجهل، وكل علم دنيوي لازم لأمتنا يكون بمنزلة علوم الدين. فإذا قلنا يجب على

[٤٩] رواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٦٣٥)، [٥/ ٢٢٣٥].

المسلم أن يتعلم علوم الدنيا ليكون مسايراً لعصره نكون مخطئين لأن المسلم لا يكون مسايراً لعصره، بل يجب أن يكون قائداً لعصره وممسكاً بزمامه، وكيف سيمسك المسلم بزمام العصر وهو يتلكأ في القراءة وليس لديه أدنى معرفة بأيٍ من العلوم!

فهذا الجيل هو المعول عليه في النهضة وإحياء حضارتنا الإسلامية، وإلا سنبقى في مؤخرة الأمم غثاء كغثاء السيل، وسيدوم تخلينا عن وظيفة عمارة الأرض، وقيادة الركب، وانتشال الأمم الأخرى من مستنقعات الكفر والرذيلة والضياع. فهذا لا يتم إلا أصبح المسلمون أقوياء بدينهم أولاً، وأخذهم بالأسباب ثانياً، وأهم الأسباب العلم بمعناه الواسع، فلا يمكن إحياء حضارة وإقامة نهضة مع الجهل والخرافة والضعف. إضافة إلى أن دراسة العلوم المختلفة من رياضيات وعلوم وتاريخ لها فوائدها في تفتيح الذهن، وشحذ العقل، وتوسيع المدارك، والتدريب على الدقة والتنظيم في التفكير.

ولهذا يجب تشجيع طلاب العلم الشرعي على استكمال دراساتهم الأكاديمية، وليتفوقوا بها ويتميزوا، فهذا من صميم الدين.

وهكذا نرى أن من أهم واجبات دور ومعاهد تحفيظ القرآن والمربين الذي يعملون بها أن يرفقوا حفظ القرآن وتعلم العلوم الشرعية بالتربية والتأديب والتزكية والوعظ لطلاب العلم، ولا يستخفوا بدورها في بناء شخصية المسلم، فهي الحافظ لطالب العلم من منزلقات الدنيا، وهي الموجه له كي لا يضل في حياته، وهي الضامن لحسن صلته بالله عز وجل .

وصل اللهم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع

القرآن الكريم.

١. ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن ادريس الرازي (٣٢٧ هـ): تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين. تحقيق أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة. ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م. [١٠].

٢. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (٢٤١هـ): **الزهد**. تحقيق محمد عبد السلام شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٣. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (١٦٤-٢٤١هـ):**كتاب فضائل الصحابة**. تحقيق وصي الله بن محمد عباس. من منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي التابه لجامعة أم القرى. دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣ م. [٢]

٤. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني الذهلي (١٦٤-٢٤١ هـ): **مسند أحمد ابن حنبل**. تحقيق أحمد معبد عبد الكريم. جمعيّة المكنز الإسلامي ودار المنهاج، جدة، ٢٠٠٨م- ١٤٢٩هـ. [١٢].

٥. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد علي الدمشقي الشافعي (٨٣٣هـ): **غاية النهاية في طبقات القراء**. تحقيق ج برجستراسر. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م. [٢].

٦. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد(٥١٠-٥٩٧هـ): **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر، الرياض. ط٢، ١٤٠٩هـ.

٧. ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (٢٣٠هـ): **كتاب الطبقات الكبير**. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة الخانجي،القاهرة. ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.[١١].

٨. ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**. الدار التونسية للنشر، تونس. ١٩٨٤. [٣٠].

٩. ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل الدمشقي (٧٧٤هـ): **مختصر تفسير ابن كثير**. اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، ١٤٠٢هـ-١٩٨١م. [٣].

١٠. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧-٢٧٥ هـ): **سنن الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربيّة، د م، د ت. [٢].

١١. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. دار صادر، بيروت. ط٣. ١٤١٤هـ. [١٥]

١٢. أبو عبيد، القاسم بن سلام: **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**. تحقيق أحمد عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المغرب. ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.[٢].

١٣. الألباني، محمد ناصر الدين (١٩١٤-١٩٩٩م): **صحيح الترغيب والترهيب**. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠ م. [٣].

١٤. البُخاريّ، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاريّ الجعفي (١٩٤-٢٥٦هـ): **صحيح البُخاريّ**. تحقيق مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٥، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م. [٧].

١٥. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (٣٢١-٤٠٥ هـ): **المستدرك على الصحيحين** مع تضمينات الأمام الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم من العلماء الأجلاء. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م. [٥].

١٦. السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ): **الإتقان في علوم القرآن**. تحقيق مركز الدراسات القرآنية التابع لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ. [٢].

١٧. الطبري، أو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤هـ- ٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. [٢٦].

١٨. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (٣٨٤هـ-٤٥٨هـ): **الجامع لشعب الايمان**. تحقيق مختار أحمد الندوي. مكتبة الرشد، الرياض. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م. [١٤].

١٩. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(٤٥٠-٥٠٥هـ): **إحياء علوم الدين**. دار ابن حزم، بيروت. ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٢٠. القاضي عياض، ابن موسى بن عياض السبتي(٥٤٤هـ): **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**

لمعرفة أعلام مذهب مالك. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب. ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. [١٢].

٢١. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر(٦٧١هـ): **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت. ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م. [٢٤].

٢٢. مالك، ابن أنس: **الموطأ**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م. [٢٦].

٢٣. مجموعة زاد: **السيرة النبوية (١)**. العبيكان للنشر، الرياض. ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م.

٢٤. مسلم، بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ): **صحيح مسلم**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث، القاهرة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م. [٥].

٢٥. الهلالي، مجدي: الإيمان أولاً فكيف نبدأ به. دار التوزيع والنشر الإسلامية، بور سعيد. ١٤٢١هـ.

٢٦. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (٤٦٨هـ): **أسباب النزول**. تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان. دار الإصلاح، الدمام. ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

ضحى مصطفى فتاحي